

الوضع الثقافي بالجزائر عام 1830 من خلال ملاحظات المؤرخ

الفرنسي مارسال إيميريت

• كمال بن صحراوي

• جامعة ابن خلدون - تيارت

• K_bensahraoui@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2019-02-01

تاريخ الارسال: 2018-05-18

الملخص : استقطب موضوع الثقافة بالجزائر خلال العهد العثماني اهتمام كثير من الفرنسيين منذ بداية الفترة الاستعمارية، وكان الهدف هو التعرف على الرصيد المعرفي والثقافي للبيئة الجديدة التي احتلتها فرنسا للتمكن من التعامل معها بطريقة مجدية. وإذا كان المؤرخون العسكريون الذين ينتمون إلى العهد الأول أكثر شراسة من مؤرخي العهد الثاني باعتبار هؤلاء أكثر اختصاصا فإن حظ الموضوعية في العهد الأخير لم يكن وافرا جدا. إن تبرير الحركة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ودعم السياسة الفرنسية بها جراً المؤرخين جميعاً - مع بعض الاستثناء الطفيف - إلى التعامل مع التاريخ الجزائري على أنه صار من "ممتلكات فرنسا" كالأرض تماماً بoudianها وشعابها وسهولها وصحرانها تفعل به ما تشاء، ولذلك كتبوا في كل شيء لكن بالمنهج الذي يرون والطرح الذي يريدون. من هنا ارتأينا أن نعالج في هذا المقال موضوع الثقافة بالجزائر أيام احتلال فرنسا لها لكن من منظور فرنسي كان صاحبه - مارسال إيميريت - أستاذاً بكلية الآداب بجامعة الجزائر. فما هي أهم المحطات التي توقف عندها في دراسته للموضوع؟ وماهي أهم الانزلاقات التي ميزت دراسته هذه؟ وما الأبعاد السياسية التي يمكن رصدتها في هذا الإطار؟

الكلمات المفتاحية : الوضع الثقافي - الجزائر - الدولة العثمانية - مؤرخ فرنسي - مارسال إيميريت

La situation culturelle en Algérie en 1830 à travers les observations de l'historien français Marcel Emerit

Résumé : Dès 1830, date de la conquête française de l'Algérie, l'écriture de l'histoire algérienne depuis les temps les plus reculés a attiré l'attention de nombreux chercheurs français, ayant l'objectif de connaître le milieu culturel, social et économique de la nouvelle colonie. Marcel Emerit fut l'un des principaux historiens français, il étudiait, en 1954, l'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, et publiât son célèbre article dans la Revue Africaine, mais dans quel contexte et avec quelles intentions ? Quels étaient les grands axes de son étude, et les grandes déviations qui ont marqué sa position en tant que Français

Mots clés : La situation culturelle, l'Algérie, Empire ottoman, l'historien français, Marcel Emerit

تقديم:

استقطب موضوع الثقافة بالجزائر خلال العهد العثماني اهتمام كثير من الفرنسيين منذ بداية الفترة الاستعمارية، وكان الهدف هو التعرف على الرصيد المعرفي والثقافي للبيئة الجديدة التي احتلتها فرنسا للتمكن من التعامل معها بطريقة مجدية. وإذا كان المؤرخون العسكريون الذين ينتمون إلى العهد الأول أكثر شراسة من مؤرخي العهد الثاني باعتبار هؤلاء أكثر اختصاصا فإن حظ الموضوعية في العهد الأخير لم يكن وافرا جدا.

إن تبرير الحركة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ودعم السياسة الفرنسية بها جزًا المؤرخين جميعا - مع بعض الاستثناء الطفيف - إلى التعامل مع التاريخ الجزائري على أنه صار من "ممتلكات فرنسا" كالأرض تماما بoudiaها وشعابها وسهولها وصحرائها تفعل به ما تشاء، ولذلك كتبوا في كل شيء لكن بالمنهج الذي يرون والطرح الذي يريدون. من هنا ارتأينا أن نعالج في هذا المقال موضوع الثقافة بالجزائر أيام احتلال فرنسا لها لكن من منظور فرنسي كان صاحبه - مارسال إيميريت - أستاذا بكلية الآداب بجامعة الجزائر. فما هي أهم المحطات التي توقف عندها في دراسته للموضوع؟ وماهي أهم الانزلاقات التي ميزت دراسته هذه؟ وما الأبعاد السياسية التي يمكن رصدها في هذا الإطار؟

1- نبذة عن حياة مارسال إيميريت:

ولد عام 1899 ب Niort، حصل على شهادة الدراسات العليا في التاريخ من جامعة Bordeaux عام 1918 ليصبح أستاذا للتعليم الثانوي ب Tourcoing قبل أن يلتحق بالمعهد الفرنسي للدراسات العليا برومانيا في العام الموالي. ثم عاد إلى فرنسا ليشغل مدرسا بكلية الآداب بجامعة Lille ابتداء من 1928. أما في الجزائر فقد اشتغل "إيميريت" مديرا للمصالح التاريخية بالجيش الفرنسي، وأستاذا بكلية الآداب بجامعة الجزائر حتى 1962 قبل أن يلتحق بجامعة Clermont-Ferrand ثم بجامعة Lille.

عالج إيميريت في إطار دراساته التاريخية مئات المواضيع⁽¹⁾، وهو في الجزائر ينتهي إلى عهد المؤرخين المختصين، وقد انصب اهتمامه على الخصوص على أوضاع الأهالي الاجتماعية والاقتصادية.

2- بعض آثاره:

- المطبوعة، منها: L'Algérie à l'époque d'Abd-El-Kader, Paris: Larose , 1951

- المقالات المنشورة في المجلة الإفريقية، منها:

- La légende de Léon Roches. 1947, pp.81-105.
- Les aventures de Thédenat, esclave et Ministre d'un Bey d'Afrique (XVIII^e). 1948, pp.143-156.
- Mémoires de Thédenat natif d'Uzès en Languedoc écrites à Zurich en 1785. 1948, pp.331-362.
- Les mémoires d'Achmed dernier Bey de Constantine. 1949, pp.65-125.
- Le texte Arabe du traité de la Tafna. 1950, pp.85-100.
- La lutte entre les Généraux et les Prêtres aux débuts de l'Algérie française. 1953, pp.66-97.
- Le Voyage de la Condamine à Alger, 1731. 1954, pp.354-356
- Toustain du Manoir au pays d'Abd-el-Kader. 1955, pp.113-152.

3- الفرنسيون وتاريخ الجزائر:

شرع الفرنسيون منذ 1830 في دراسة تاريخ الجزائر ففتحوا المجال للأفراد ليكتبوا، ولتكتمل عملية تأطير هذا الفعل الثقافي الذي لا ينفصل عن العمل السياسي والعسكري لجأوا إلى إنشاء الجمعيات التاريخية حتى يتمكنوا من توظيف التاريخ في خدمة أغراضهم الاستعمارية، ونتيجة لذلك كثرت الأبحاث والدراسات ونشطت الدوريات والمجلات، ونشأ رصيد معرفي ظل ينبش في ماضي الجزائر.

ففي مجال الكتابة عن الطرق الدينية نذكر مثلا عمل Louis Rinn (1884م)⁽²⁾ حول المرابطين والإخوان التابعين للطرق الدينية المختلفة، وهو عمل عززه الكتاب الذي نشره Depont و Coppolani (1897م) واشتمل على تفصيلات هامة حول هذه الطرق وهيكلتها ودورها في المجتمع خصوصا الريفي. وفي موضوع متصل نذكر عمل دوماس Daumas (1853م) حول عادات وتقاليد الجزائر بمناطقها المختلفة؛ تل، قبائل، صحراء.

وعن السياسة الدينية التي انتهجها العثمانيون في الجزائر كتب Boyer مقالا نشر عام 1966م شرح فيه أبعاد هذه السياسة، ويّين الدور الكبير الذي قامت به المؤسسات الدينية ورجالها خصوصا في المجتمع الريفي. معرجا على موقف البايك من العلماء المخالفين لتوجهاته، وعلى الصراع الذي كان بينه وبين المغرب الأقصى والذي صارت الطرق الدينية طرفا فاعلا فيه.

وفي ميدان العلوم أنجز Gabriel Colin رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الطب عام 1905م بكلية الطب بمونبولي Montpellier تضمنت دراسة معمقة لما في كتاب "كشف الرموز" لابن حمادوش وطرق العلاج التقليدية التي كانت معتمدة آنذاك لاسيما في الريف، مع إدراج نصوص الكتاب بالعربية في آخره، وهو ما يجعله جديرا بالاطلاع.

وفيما تعلق بالشخصيات اعتنى Bodin⁽³⁾ بالحديث عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي ينحدر من زناته، وبعصره الذي يقول عنه إنه عصر اضطرابات كبرى فقد فيه المسلمون غرناطة وانتقل الصراع الإسلامي النصراني إلى المغرب الأوسط، مشيرا إلى أن وفاته رحمه الله لم تسبق سقوط مملكة تلمسان الزيانية إلا بثلاثين عاما، وقد صار طرفا أساسيا في صراعها مع العثمانيين حيث وقف معهم ضدها. وقد زاد تحالفه هذا من اضطراب أحوال الزيانيين⁽⁴⁾ لذلك شيد العثمانيون على قبره البسيط ضريحا ومسجدا فاخرين بناهما أحدُ حفدته اسمه الخلادي من مال باي وهران محمد الكبير⁽⁵⁾.

وكتب Gorguos موضوعا هاما عن أبي راس الناصري⁶ وقال عنه بأنه مؤرخ جديد بإفريقيا الشمالية، واستخلص من قصيدته كل ما يتعلق بتاريخ الشعوب الإفريقية ليضعه بين يدي قراء المجلة كما قال. كما ناقش GUIN موضوع إتلاف بعض القبائل لكتاب أبي راس الناصر⁽⁷⁾ "أنوار البرجيس" الذي عالج فيه موضوع الشرف. وعَرَفْنَا GUIN بـ "عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان

من أشرف غريس" للشيخ أبي زيد بن عبد الرحمن التيجيني الذي ترجم فيه لمجموعة من العلماء والأشراف الذين سكنوا جهة غريس من أرض معسكر خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وتحدث فيه أيضا عن أصول قبائل هذه الجهة.

كما لخص دلباش كتاب ابن مريم "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"⁽⁸⁾ الذي أنهاه صاحبه عام 1014هـ (1605م - 1606م) بذكر من سلّمه هذا المؤلف وهو سي براهيم بن الزروقي باش عدل بمدينته الأصلية تلمسان، والتي ينحدر فيها من عائلة عريقة وذلك بعد أن عرّج على ذكر العديد من صلحائها وعلمائها سواء الذين وُلدوا بها أو الذين التحقوا بها قادمين إليها من جهات أخرى.

وترجم دالباش أيضا كتاب تاريخ الأمير عبد القادر⁽⁹⁾ لابن عمه الحسين بن علي بن أبي طالب بن سيدي قادة بن المختار. وأخبرنا في نهاية المقدمة التي كتبها عن الكتاب بأنه استخدم ترجمة "منطقية وواضحة" للمعاني الواردة فيه دون الابتعاد عن مقتضى "الحرف" ولعل سبب رغبته في إنجاز هذا كله هو التفاصيل الخاصة التي وردت في الكتاب عن الأمير، والتي وجب توضيح كثير منها في الهوامش، خاصة وقد أقر بأن المعطيات التي يحملها الكتاب تصبح أكثر أهمية بدخول مرحلة الأسر، لكنه آثر حذف ما تعلق بالتجوال في الجزائر ليمر مباشرة إلى الخاتمة التي تضمنت آمال الكاتب على غرار بقية الجزائريين.

أما المؤرخ "مارسال إيميريت" - الذي نخصص له بحثنا هذا - فنشر عام 1954 مقالا هاما حول الحالة الثقافية بالجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي⁽¹⁰⁾، وحين نقف عنده بالدراسة والتحليل نلاحظ أنه يمر في تقييمه لهذه الحالة الثقافية بمرحلتين مختلفتين:

1- مرحلة التوصيف الدقيق لهذه الحالة الثقافية مع تقديم الأدلة على وجود نشاط تعليمي مكثف على مستوى المدن والأرياف، فهو يُجري مقارنة لهذا الوضع مع مثيله في فرنسا، بل ويختم المقال بكلام جميل عن الإسلام الذي أعطى الجزائر طاقاتها الأخلاقية. وهذا كله يجعل القارئ ينخدع في إيميريت حتى يظن أنه مؤرخ موضوعي لا تهمه مصلحة فرنسا على الإطلاق. وواضح أن هذا التوجه الذي تبناه إيميريت - مؤقتا - لم يعجب كثيرا من الأطراف الفرنسية آنذاك مثل بيار بواي Pierre Boyer، فكتب إيميريت يرد عليه:

"لقد برهنتُ على أن الجزائريين كانوا على العموم - قبل 1830م - يُحسنون القراءة والكتابة، لكن السيد بواي Boyer لم يجد ما يُثبت ما ذهبْتُ إليه. وأنا الآن أذكر بعضاً من ذلك، ولا يتعلق الأمر بكتابات حول ق 18م وإنما حول بداية الحملة الفرنسية، فقد ورد الحديث في محاضر اللجنة الإفريقية ص 41 عن طلب بوضربة إنشاء جريدة عربية تتحدث بالخصوص عن الصناعة والزراعة وبعض العلوم الضرورية، لأن (جميع العرب تقريباً يحسنون القراءة والكتابة)"

"... وفي مذكرة بعث بها العارف بالمجتمع الجزائري الكولونيل إسترازي عام 1844م جاء قوله:

(ربما ستصاب بالدهشة - يا سيدي - حين تعلم أن متوسط الذكور القادرين على القراءة والكتابة بين شعب يُنعت بالبربرية، يساوي على الأقل نفس المتوسط الذي تذكره إحصاءاتنا حول المتعلمين في مناطقنا الريفية)" (11)

2 - مرحلة المعالجة السياسية لمكانة المؤسسات التعليمية ودور شخصياتها الفاعلة في مقاومة الاستعمار والتنبية إلى ما كان يجب القيام به للتغلب عليها. وهنا يتحول الباحث إلى منظر للسياسة الاستعمارية، ونصبح نحن أمام خيار الاعتماد على هذه الكتابات أو عدمه لكن مع الحذر الدائم منها، فهذه الكتابات الأوربية "على كثرتها لا تعكس على العموم إلا وجهة نظر جزئية (partielle) أو متحيزة (partiale)" على حد تعبير بواي (12).

3- ملاحظات إيميريت الأولية عن الحياة الثقافية بالجزائر:

يلاحظ "إيميريت" ابتداء أن تاريخ الجزائر منذ 1830 بُني بصفة خاصة على وثائق فرنسية ودُرس بعقلية أوربية، ويعيب على بني قومه أنهم لم يبحثوا في هذا البلد عن "الروح الإسلامية" ويعزو إلى ذلك عدم قدرتهم على تفسير طول مدة المقاومة الجزائرية بشكل مقبول. كما يعمد إلى مقارنة الجزائر بجارتها المغرب وتونس حيث خطا الاستعمار خطوات عملاقة وحيث كانت المقاومة أقل حيوية.

وحيث يبحث "إيميريت" عن سبب طول المقاومة الجزائرية لا يقلل من قيمة قادتها لكن يرجعها إلى "مجموعة قوى مشتركة" لم يستطع الفرنسيون آنذاك فهمها ولا تعطيلها: "لقد كان بين مسلمي الجزائر والأوربيين مسافة أخلاقية معتبرة" اتسعت خلال مرحلة حكم بيجو لكنها خفتت بعد 1848

بفعل معرفة أكبر بالبلد حيث صار التعاون بين المسلمين والنصارى ممكناً". وإذا لم تمتلك الجزائر في 1830 - حسب إيميريت - سوى موارد مادية ضعيفة ولم تكن غنية بالسلع فإنها امتلكت قوى غير معروفة.

أ- الشروط المادية للحياة الثقافية: الحبوس

لا يُخفي الباحث موقفه من العثمانيين، فهو ينعته بالمتغلقيين على أنفسهم، الذين لم يصنعوا قوة أدبية بالجزائر، فإدارتهم العامة لم تشرف على التعليم ولم تراقبه، إنما انبثقت هذه الروح في المجتمع الجزائري من "تعاليم القرآن والأحاديث النبوية التي اعتبرت التعليم ضروريا للوقوف على الحقيقة واتباع مبادئ الدين. لقد أصبح القرآن هو أساس التعليم الابتدائي والثانوي وحتى العالي".

ويشدد إيميريت على أن السلطة لم تأخذ شيئا من هذا على عاتقها إنما المحسنون والموظفون السامون المهوسون بتحقيق "الشعبية"، وهذا حكم قاسٍ من الباحث على هذه الفئة، ولعله ألصقه بها لأنها انتمت إلى منظومة الحكم العثماني. أما الأوقاف فلم تكن - حسب - مخصصة لنشر تعاليم الإسلام فقط وإنما لأغراض أخرى مختلفة:

- تنظيم ركب الحج

- صيانة العيون والمنايع وحتى الثكنات العسكرية

- صيانة المساجد والاعتناء بها كمؤسسة سبل الخيرات بمدينة الجزائر والتي كانت تشرف على 08 مساجد حنفية، وقد بلغ مدخلها 13639 فرنكا عام 1837.

- الاعتناء بالفقراء والمساكين كأوقاف مكة والمدينة والتي حصّلت 122503 فرنكات عام 1837.

- الاعتناء بفقراء الجالية الأندلسية حيث كان مدخول هذه المؤسسة يساوي 5000 فرنك عام 1837، وقد استفاد منها في بداية الفترة الاستعمارية 71 منهم.

و حين أشار إيميريت إلى الوقف الأهلي اعتبره تحايلا على القانون حتى لا تأخذ الدولة شيئا من هذه الممتلكات. كما لم يُخف انتقاده لطريقة الفرنسيين في تسيير أموال الأوقاف منذ 1830 حين ضُمت إلى ممتلكات الدومين دون إجراء إحصاء دقيق لها يمكن من محاربة التبذير.

ب- مستويات التعليم:

يُثمن إيميريت ابتداء الدراسة التي أنجزها Ismail Urbain⁽¹³⁾ تحت عنوان: Notes sur l'instruction musulmane كما يشير إلى أنه اعتمد على دراسات مفصلة أنجزت عامي 1847-1848 منها تقرير الجنرال Bedeau⁽¹⁴⁾ في 12 فيفري 1847 وتقرير Auguste le Pescheux المسؤول عن التعليم العمومي بالجزائر وتقارير عن كل مقاطعة بتاريخ جانفي 1848.

*- التعليم الابتدائي:

يبدأ الباحث حديثه عن هذه المرحلة بتعميم حكم التحاق الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 06 سنوات و 10 بالمدرسة، ويستثني البنات إلا في حالات خاصة. ويورد هنا كلاما خطيرا ينسبه إلى الأمير عبد القادر مفاده أن قوانين الإسلام تمنع تعليم المرأة حتى لا تكتب إلى خليلها وترتب لقاء معه.

في كل دوار تخصص خيمة تسمى "الشرية" يتعلم بها الصبية، ويشرف المؤدب على العملية بعد أن تختاره الجماعة⁽¹⁵⁾ أو شيخ الدوار، أما في المدينة فيلتحقون بالمسيد أو المكتب التابع للأوقاف. ثم ينتقل إيميريت إلى أجور المعلمين ويقدم مثالا عن واحد منهم بقسنطينة كان يتقاضى 30 فرنكا في السنة بينما كان الخروف يساوي 04 فرنكات وقنطار القمح لا يتعدى 08.

ثم يقدم إحصاءات هامة عن التعليم، ففي 1837 كانت بقسنطينة 86 مدرسة ابتدائية يرتادها 1350 تلميذا، بينما وجدت 50 مدرسة بتلمسان التي طان عدد سكانها يتراوح بين 12 ألفا و 15 ألفا. أما مواد التعليم الابتدائي فهي الحساب والحروف وتعلم مبادئ الدين، والهدف من ذلك كله هو تحضير التلميذ لتلاوة القرآن الكريم.

*- التعليم الثانوي:

يشرف عليه المدرّس في المسجد أو المدرسة التي وجدت حتى عند القبائل العربية، وتكون هذه المدارس في المدن في بنايات تابعة للأحباس، أما التعليم فكان مجانيا. ويقترح الناظر اسم المدرس على الباي الذي يعينه، وهو يتلقى سنويا ما بين 100 فرنك و200، إضافة إلى مزايا أخرى كثيرة منها الماء الضروري لوضوئه والزيت اللازم لقناديله باعتباره يمضي الليل في تحضير الدروس، إضافة إلى حلويات تقدم إليه في رمضان وثياب بمناسبة العيد.

وينبه إيميريت إلى أن التلاميذ لم يكونوا يدفعون شيئا خلال هذه المرحلة، بل يحصلون - على العكس من ذلك - على الماء والزيت والحلويات. فقد احتوت قسنطينة على 35 مسجدا و07 مدارس بها جميعا 700 تلميذ يتلقى 150 منهم منحة تساوي 36 فرنكا.

ويستمر إيميريت في تقديم الإحصاءات من مدينة الجزائر وتلمسان كدليل على الاعتناء بالطلبة والمؤسسات التي تؤويهم، ومن ذلك مثلا تخصيص أراض يوجه إنتاجها إلى الزوايا وطلبة العلم بها، وقد عرج على ذكر أهم الزوايا بالمدن الكبرى أو قريبا منها. كما اعتنى بالحديث عن المواد المدرّسة والإجازات الممنوحة للطلبة، والتي لم يعتبرها شهادات Diplôme وإنما مجرد إقرار من الشيخ بأهلية "الطالب" لقراءة القرآن وتبوّؤ منصب "مؤدّب".

*- التعليم العالي:

يستهل الباحث حديثه بإبداء ملاحظة أساسية متعلقة بعدم الفصل بين التعليمين الثانوي والعالي، منها إلى دور المدرس في النوع الثاني منهما من خلال تقديم دروس تؤهل طالب العلم إلى مرتبة "العالم" حيث كان كل بايلك يحصي سنويا من هؤلاء ما بين 600 و800.

ثم يركز إيميريت على أهم المدارس التي كانت تقدم تعليما عاليا كالجامع الكبير بتلمسان والزاوية القادرية⁽¹⁶⁾ بمعسكر ومدرسة مليانة ... ثم يعرج على العلوم الأساسية التي كانت تُدرّس في هذا الإطار، وهي: النحو (Syntaxe) - الفقه (Droit) - التفسير (Théologie) - الحديث - Tradition du Prophète - الحساب Arithmétique وعلم الفلك Astronomie - إضافة إلى التاريخ (ابن خلدون) والطب (ابن سينا).

ت- التأليف:

أول ملاحظة يبدىها إيميريت هنا هي فقر التأليف المحلي بالجزائر العثمانية، ثم يتحدث عن أبي راس الناصري ويقدم عنه نبذة سريعة في الهامش اعتمادا على ما ترك Faure-Biguet عام 1903 الذي ترجم الحلل السندسية Vêtement de soie fine لكنه لا يتأخر عن وصف هذه القصيدة بالريكة.

وفي إطار الحديث عن التأليف يعرج على كتابات الأمير عبد القادر رغم أنها كانت بعد 1830 ويصفه بالمتعلم. لكنه يأسف لعدم حصوله إلا على جزء من قصيدة شعبية لها بُعد سياسي حيث هاجم فيها قدور ولد امحمد⁽¹⁷⁾ الأمير عبد القادر وسي الطاهر ابن حوا، محيلا في الهامش على مقال Cour في المجلة الإفريقية في عددها 59 لعام 1918 تحت عنوان: La poésie populaire au temps de l'Emir Abdelkader, pp 458-493.

أما مجال العلوم فيعتبره إيميريت غائبا لكن يشير إلى كتاب هام كتب عام 1855، ويقصد "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" للأمير عبد القادر⁽¹⁸⁾، ويدعو القارئ إلى استخدامه بحذر. ذلك أن الأمير - حسب "إيميريت" طبعا - زاول تعلمه في فرنسا ثم في بورصا بتركيا وحصل على عدة كتب وأدرج ضمن كتابه معطيات جديدة، بينما ظلت معلومات الجزائريين متأخرة. وهذا كله يجعل الأمير محلّ شبهة متعلقة بالسطو على تأليف الآخرين أو النقل عنهم.

وفي إطار حملة التشكيك هذه التي يشنها إيميريت على الأمير يُبدي استغرابه من ولوجه عالم العلوم، ذلك أن "تكوينه الديني يمنعه من فهم أبسط عناصرها رغم نيته الواضحة في فرض نفسه كمسلم ليبرالي". فالعلوم عند الأمير بعضها محمود كالزراعة والنسيج والجراحة والفنون العسكرية والقانون، وبعضها مذموم كالسحر والتنجيم.

ويقع "إيميريت" في شرك التعميم حين يسرد ما جاء في رسالة Desgranges إلى المارشال Valée بخصوص 05 شبان جزائريين أخذوا من مقاطعة قسنطينة إلى باريس ليخضعوا لتجربة التعليم هناك، فقد انصاع اثنان منهم بينما رفض الباقي الانصياع، ولم يهتموا إلا بملاقة أعيان

المدينة والحصول على بعض التكريم لعلهم يتباهون بذلك كله عند عودتهم إلى أهاليهم. وقد كان ذلك كافيا حتى يصدر إيميريت حكمه بعدم قابلية الجزائريين آنذاك للتعليم.

ويستمر الباحث تدريجيا في مجارة طرح المدرسة الاستعمارية، متهما طلبة العلم باللجوء إلى الزوايا ليستفيدوا من الإعاشة دون القيام بعمل مقابل ذلك، ودون الحفاظ على النظام. ويخلط هذا الطرح بأرقام قدمها كل من Esterhazy⁽¹⁹⁾ و Urbain مفادها أن أعداد الجزائريين الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة كانت أكبر من أعداد الفرنسيين، فقد لاحظنا أن 45% من الفرنسيين في هذا الوقت كانوا أميين، وأن الجزائر احتلت بجنود جاؤوا من طبقة ريفية جاهلة تماما. ويحيل على Lettre-mémoire du Colonel Walsin Esterhazy, Oran, 24 Dec 1844.

أما التأثير السياسي لهذا الوضع الثقافي الجزائري فيراه "إيميريت" كبيرا للغاية، فقد كانت المدرسة تُقدم للطلبة - بعيدا عن العلوم - تربية تعزز تأثير الإسلام فيهم من خلال "سيرة النبي" فيعود الواحد منهم إلى بيته محملا بهذه المبادئ. والنتيجة هي توحيد هذا المجتمع العربي الأمازيغي Unification de cette société Arabo-Berbère politiquement si divisée.

ورغم أن المؤيدين لم يكونوا يمارسون السياسة فإنه لم يكن بمقدور أي كان طردهم أو المساس بهم لأنهم كانوا سيستخدمون طلبتهم كجنود يدافعون عنهم، وهو ما لم يفهمه الفرنسيون قبل 1847. وهنا يتحول إيميريت إلى ناصح أمين لدولته فرنسا يوجهها إلى كيفية التعامل الصحيح مع المتعلمين، حيث يتحدث عن قدور بن رويلة صاحب "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب"⁽²⁰⁾ وعن تضيق فرنسا عليه حتى التحق بالأمير عبد القادر وصار كاتباً لسيرته.

وفي خطوة خطيرة جدا تعكس موقف المؤرخين الفرنسيين من المؤسسات الدينية يرى إيميريت في نشاطها تطرفا وتعصبا، ويشير إلى أن الإدارة الاستعمارية قبل بوجو لم تنتبه إلى "أسباب الشر" حتى صارت ضحية له، وأن دراساتها - التي لم تأت إلا لاحقا - جديرة بأن تُقابل وتتكامل لتعطي تفسيراً "للتطور الأخلاقي والقوة العسكرية للمسلمين الذين وقفوا في وجه سيطرتنا".

بعد هذا يلجأ إيميريت إلى بيان "سذاجة" الطرق الدينية من خلال الممارسات التي لا صلة لها بالإسلام، لكنه لا يشير إلى هذا فقط بل يمضي إلى بيان استغلال الشيخ للطريقة حتى تتحول إلى ما يشبه "الميت في يد من يغسله" "Comme le cadavre entre les mains du laveur de morts". ولا يفوت الفرصة بل يستغلها للحديث عن القوة المالية للزوايا والتي تحولت إلى سلطة سياسية فعلية. وهو هنا ينبّه الإدارة الفرنسية إلى ضرورة مراقبة مجالات صرف هذه الأموال.

ثم ينتقل الباحث إلى عرض أهم الطرق الصوفية بالجزائر والمناطق التي تسودها كل طريقة. وبعد أن بيّن مواقف كل منها من الاستعمار أوضح أن فرصة استغلال الخلاف بينها كانت متاحة لكن الفرنسيين أضاعوا كثيرا من الوقت قبل أن يتعرفوا عليها.

فدراوة طريقة مشاكسة هددت نظام البايلك بوهران ثم ساهمت في مقاومة الاستعمار الفرنسي في بدايته، ويعطينا إيميريت - كمثال على ذلك - هجوم الدرقاوي عبد الرحمن توتي على حصن سيدي بلعباس يوم 30 جانفي 1845 قبل أن يبيّن تراجعها عن التدخل في السياسة بعد هزيمة الحاج موسى الدرقاوي على يد الأمير عبد القادر عام 1835. وقد ألح الحشم فيما بعد ومعهم الأحرار وفليته على زعيم الطريقة سي محمد بن براهيم ليثور ضد الفرنسيين لكنه ظل 07 أيام بسهل غريس يدعو إلى عدم استخدام القوة. وهناك طرق بعيدة تماما عن المقاومة، ويقدم إيميريت هنا مثالا عن عيساوة الذين ظلوا يجوبون الأسواق بحياتهم السامة ويروون القصص للناس.

لكن هذا الباحث يقف عند طريقتين دينيتين هما القادرية⁽²¹⁾ والطيبية⁽²²⁾، وبعد حديث مقتضب عن الأمير عبد القادر عرج على محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة ليقف عند قضية "المهدوية" التي ادعاها له أصحابه. وقبل أن ينهي "إيميريت" حديثه هنا قلل من قيمة الجهاد واعتبره في الجزائر مجرد مقاومة لعناصر أجنبية.

وجاء في ختام مقال هذا الباحث أن من السهل الحديث عن معركة بين الحضارة والهمجية لكن الأصوب - في رأيه دائما - هو الحديث عن الصدمة بين حضارتين تجهل كل منهما الأخرى، منتها إلى أن الجزائر ظلت تعيش حالة القرون الوسطى غير أن التربية الإسلامية أعطتها طاقة أخلاقية كبيرة.

استنتاجات:

- ساهم الأوروبيون في كتابة التاريخ الجزائري سواء خلال العهد العثماني أو بعده، وقد اهتموا بالجوانب الاجتماعية والثقافية وكتبوا عن اقتصاد الجزائر وراحوا يفتشون في ماضيها السحيق ليصوا إلى نتائج كثيرة.
- لم ينس المؤرخون الفرنسيون أنهم في الجزائر يمثلون يدا استعمارية تضرب بقوة لتوسع الإمبراطورية الامبريالية الفرنسية، ولذلك راحوا يدافعون عن الطرح الفرنسي ويعملون على تبرير الفعل الاستعماري، ولم يسلم من ذلك حتى المؤرخون الذين ينتمون إلى العهد الثاني ويتظاهرون بموضوعيتهم وحيادهم.
- عُرف "مارسيل إيميريت" باعتناؤه بالجانب الثقافي ودراسة وضع التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني وبعده، ولطالما دافع من خلال أطروحته عن مكانة التعليم بالجزائر وغناها الثقافي، لكنه لم يسلم من تأثير المدرسة التاريخية الاستعمارية حيث تحول إلى مشكك في مسائل كثيرة مرتبطة بالمنتوج الثقافي الجزائري وشخصياته البارزة، بل وصار "مخبرا" ينبه الإدارة الفرنسية إلى ما كان عليها فعله في ق 19 لتحتوي المقاومات الشعبية الجزائرية.

الاحالات والهوامش:

- 1- عن الدراسات الفرنسية التي عالجت تاريخ الجزائر بما فيها كتابات إيميريت راجع: Yacono, L'Algérie depuis 1830, R.A, V100, 1956, pp145-190
- 2- Louis Rinn, Marabouts et Khouanes, Etude sur l'Islam en Algérie, Alger, Adolphe Jourdan, Libraire, éditeur, 1884.
- 3- Bodin, Notes et questions sur Sidi Ahmed-Ben-Yousef. R.A. Vol 66, Année 1925, pp 125-189
- 4 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (16م - 20م)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1985، ص 504
- 5 - محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، د.ت، ص 108.
- 6- Gorguou, Bou Ras, historien inédit de l'Afrique septentrionale, Vol 05, Année 1861, pp 114 - 124 / pp 210 - 222 / pp 376 - 385
- 7- L. GUIN, Beylik d'Oran: de la suppression du manuscrit: les réflexions brillantes de Jupiter ou commentaire du «collier précieux» qu'avait rédigé Mohammed Bou Ras ben En- Naçer. V 31, année 1887, pp 72-80.
- 8- Delpech (Adrien), Résumé du « Bostane » (Le Jardin) ou Dictionnaire biographique des Saints et des Savants de Tilimsane. V 27, année 1883, pp 380-399 / V 24, année 1884, pp 133-160 et pp 355-371.
- 9- DELPECH (A.) Histoire d'El-Hadj A'bd-El-K'ader: par son cousin El-Hossin Ben A'Li Ben Abi T'Aleb (Traduction), R.A. V 20, année 1876, pp 417-455
- 10- Marcel Emerit, «L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830», Revue d'histoire moderne et contemporaine, T1, 3^{ème} trimestre, 1954

- 11- Marcel Emerit, «A propos de l'Algérie en 1830. Réponse à P. Boyer / Correspondance», *Annales, Économies, Sociétés, Civilisations*, N° 3, 23e année, 1968, p 720.
- 12-Pierre Boyer, «La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française», *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, N°1, 1966, p 246.
- 13- ولد Thomas Ismayl Urbain بمدينة كايان عاصمة غويانا في 31 ديسمبر 1812، عاش ظروفًا صعبة وقسوة عائلية جعلته يرتقي في أحضان السانسييمونيين بعد أن اطلع على مجلتهم Le Globe الحاملة لأفكارهم يوم 20 أبريل 1832. ودخل بذلك عهدًا جديدًا مؤمنًا فيه بالفكر السانسييموني، ثأرًا على الجمهوريين والإقطاعيين من الأسرة المالكة، وياشر مشروعه الجديد من جنوب فرنسا وكورسيكا، وكله عزم وأمل في أن تختفي مظاهر العبودية، وأن يتعايش كل من على المعمورة شرقًا وغربًا في حب وسلام.
- مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسييموني في مصر والجزائر، 1833-1870، الجزائر: دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، ط 1، 2013، ص 61 وما بعدها.
- 14- Marie-Alphonse Bedeau عسكري وسياسي فرنسي ولد عام 1804 ومات عام 1863، تقلد مراتب عسكرية بالجزائر التي أصبح بها حاكمًا عامًا خلفًا لبييجو من 29 جوان إلى 06 أكتوبر 1847.
- 15- الجماعة مجلس محلي يجتمع دوريًا لمناقشة قضايا المجموعة البشرية التي يشرف عليها، ويحضر الاجتماع كل ذكر تجاوز 15 سنة أو 16 سنة، ولكل حاضر الحق في الحديث، وتصبح القرارات التي حظيت بالإجماع نافذة. وللجماعة - إضافة إلى الصلاحيات الإدارية - صلاحيات قضائية حرمتها منها السلطة الفرنسية فيما بعد. وقد كان المفتي يتولاها حيث يشرف - زيادة على الحياة الروحية - على الحياة المدنية إذ يعالج قضايا الإجماع. يراجع:
- Houdas (O), *Ethnographie de l'Algérie*, Paris, Maisonneuve Frères et Ch. Leclerc Editeurs, 1886, p79.
- 16- وللتعرف على الطرق الصوفية وأدوارها بالجزائر خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة يراجع:
- Edmond Doutté, *Notes sur le l'Islam Maghrébin*, Marabouts, Paris, Ernest Leroux Editeur, 1900
- Louis Rinn, *Marabouts et Khouanes, Etude sur l'Islam en Algérie*, Alger, Adolphe Jourdan, Libraire, éditeur, 1884
- 17- قدور ولد محمد البرجي المدعو بونقاب الذي عزله الأمير، وكان شاعرًا فكتب بهجوه ويهجو عائلته ليرد عليه شعراء كثيرون منهم الحبيب ولد بوعلام. وحدث أن الدواير دعوا قدور ولد محمد إلى مأدبة كبيرة وبدأوا يمدحونه حتى شبهوه بابن السويكت ثم طلبوا منه هجاء الأمير في قصيدة جديدة، غير أنه رفض خوفًا على قبيلته من انتقام الأمير الذي عفا عنه لكنه احتفظ بأفراد عائلته كرهائن، ولما فشلت محاولات إطلاق سراحهم كتب قدور قصيدته الشهيرة التي مطلعها: (يا قريب الضحكة وبعيد في رضاك) وقد أورد الكاتب Cour قصيدة قدور النقايبي كاملة وترجمها إلى الفرنسية وعلق بعدها على مصير صاحبها الذي ظل فارًا حتى توفي. يراجع:
- Auguste Cour, *La poésie populaire politique au temps de l'Emir Abdelqader*. R.A, 1918, pp 462-463.
- 18- جدير بالذكر أن نسبة هذا الكتاب إلى الأمير عبد القادر مختلف فيها بشكل كبير.
- 19 - عسكري فرنسي له اهتمام بتاريخ الجزائر عامة وتاريخ وهران وقبائل الغرب الجزائري خصوصًا. من مؤلفاته:
- Esterhazy (Louis-Joseph-Ferdinand Walsin), *De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger*, Paris, Librairie de Charles Gosselin, 1840
- Esterhazy (Louis-Joseph-Ferdinand Walsin), *Notice historique sur le maghzen d'Oran*, Oran, Typographie de Berrier, 1849
- 20- يشير بربروجر ابتداء (ص 98) إلى أن الضابط بواصوني Boissonnet (هكذا) قد نشر نصه العربي بقسنطينة، كما أشار إلى نسخة في المكتبة الوطنية تحمل ترجمة للكتاب، لكنها لا تحمل اسم المترجم الذي يبدو أنه مترجم رسمي. وفي نهاية موضوع بربروجر وردت ملاحظات هامة من هيئة التحرير بناء على معلومات جديدة زودها بها الضابط بواصوني المذكور مفادها أنه نشر الكتاب في مارس 1848 بعد أن أشرف على نسخه من مخطوطة بخط يد ابن رويلة. وقد ظهر 'الوشاح' بدار النشر Hachette تحت العنوان الفرنسي التالي: Quelques poésies

d'Aabdelkader ; Ses règlements militaires ولكن جعل الأساس في العنوان تابعا لما هو ثانوي، وكان الناشر يعلم هذا ولكنه أراد أن ينشر شيئا عن الأمير المشهور.

كما وردت معلومة هامة تفيد بأن الكتاب ترجمه المترجم العسكري Rosetti ونشره الجنرال Marey في Spectateur militaire يوم 15 فبراير 1844، ولعل الفرنسيين قد استفادوا من الكتاب - والحرب بينهم وبين الأمير لازالت قائمة - فتعرفوا على تركيبة الجيش ورسوموا الخطط الضرورية لمواجهة. ولتابعة موضوع ببروجير إراجع:

Berbrugger, Ouichah el-Kataib [Règlements de l'armée d'Abd el-Kader], R.A. 1864, pp 98-103

- 21- تنسب إلى عبد القادر الجيلاني، وقد دخلت الجزائر قبل مجيء العثمانيين ورغم ذلك لا تعلم لها زاوية قبل تأسيس زاوية القيطنة عام 1786م من قبل الشيخ مصطفى المختاري الغريسي جد الأمير عبد القادر. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج 2، ص 269
- 22- ولدت الطريقة الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى، عام 1089هـ / 1678م - 1679م على يد مولاي الطيب بن محمد بن مولاي عبد الله، الذي تتلمذ على علماء القرويين بفاس، وكان شديد الزهد في الدنيا حيث بدأ حياته فقيرا، لكن الزاوية التي أنشأها توسعت في عهده حتى أنها صارت تطعم 14000 شخص.

Louis Rinn, Marabouts ... Op.cit, p 43